السماء كم هي بعيدة

رواية

إبراهيم صالح

السماء كم هي بعيدة

لوحة الغلاف للفنان :

دانت جابرييل

وميض النجوم

(١)

خريف ....

عام واحد وثمانون على الأبواب . السادات في سدة الحكم يلقي خطبه العصماء .

"بسم الله .... بسم الشعب .... ، أيها الإخوة والأخوات ...."

الشارع يموج بكتائب الإخوان وفلول كثيرة من باقي التيارات الدينية ، المدينة تزخر بالحركة التجارية وكافة البضائع التي أدخلها عصر الانفتاح .

جرت الناس مسعورة نحو كل ما هو أجنبي ، سنوات الحرمان في الستينات والسبعينات أحمت السعار وأشعلت نار الظمأ

لكل ما هو مستورد ، البيت خشبي قديم ، يطل على قلب المدينة ، سوقا الحميدي والتجاري بتياراتهما البشرية المتلاحمة ، أشكال شتى من كافة البلاد أتت تتلمس الميناء ، افتتحه الرئيس في ٥ يونيه عام ١٩٧٥ بحضور الأمير رضا بهلوي ، لم يتجاوز عمره وقتها الرابعة عشر عاما .

وقفت في طابور العرض تلوح لموكب الشاه الصغير ، كانت مركبه تمخر عباب الميناء تحيط بها عشرات المراكب المزينة بأعلام لا حصر لها من كل الألوان ، بدا لعينيك بأعوامه الأربعة عشر يملك كل الدنيا ، شعرت بالأسى وقتها أن يدك مجرد يد وسط آلاف الأيدي ، امتدت لتهتف وتحيي ذلك الأمير الصغير .

اليوم والخريف يعصف بالبلد كلها ، ترى جنازة الشاه الكبير محمد رضا بهلوي ، والده ، طردته الثورة الإيرانية شر طردة ، تلمح الأمير الصغير وسط الأعلام السوداء المحيطة

بالموكب ، شتان بينها وبين كل تلك الأعلام المبهجة التي كان يرفل بينها في ثياب البحرية البيضاء ، أصبح الآن شابا يافعا متجهم الوجه ، يسير وسط أسرة تحاول أن تتحلى بالجلد والشجاعة أمام كاميرات سوف تولي الأدبار بعد أن ينفض الموكب .!

تطل جيهان ابنة الجيران ، في أحلك الأوقات ترنو إلى وجهها من الشرفة . تجدد الرغبة في الحياة وتملأ روحك بالأمل ، سهرتما الليالي تستذكران ، ترقب شباك نافذتها المضيء فتستمد منه الحماس وتغالب أمواج اليأس التي تحاول أن تغمرك ، مشوارك الدراسي أكملته معها ، عاما يتلوه العام ومرحلة تتلوها مرحلة حتى دخلتما الجامعة . !

كلية التجارة .... !

أردت أن تكون .... !

ما الفائدة الآن ؟ ولي كل شــــئ !

تلمح مسعد ابـن الشـارع ، أحـد أعضـاء الجماعـات الدينية النشطاء ، شـابا تتبدى الفتـوة في كل حركاتـه وتتسم بالعنفوان كل مراحل عمره .

تشاجر مع أحد بلطجية الشارع ذات يوم ، طرحه أرضا ببنيانـه القوي ، كاد يجهز عليه .... لم تنس هذا أبدا ....

يختلف عن كل البلطجية الذين يمتلئ بهم الشارع ، نال قسطا وافرا من التعليم والوعي ....

ذات يوم دافع عن امرأة عجوز ، تحرش بـها أوباش الشارع ، أكلهم بصوته الجهوري ورفع عضلاتـه في وجوهـهم ، رغـم ذلك كان ينغمس معهم فيما يفعلون أغلب الوقت ، ينجرف في نزواتهم ويمشي في ركابهم ، يغيرون هنا وينصبون عراكا هناك

الآن ! !

يرفل في ثياب بيضاء ناصعة ، تلمع السكينة في وجهه وتتدلى لحية جميلة من ذقنه رغم شبابه !!

يا للعجب !! هل يحول التدين كل تلك القوة والجبروت إلى كل هذا السلام وهذه السكينة ؟

في هذه الأيام يكتمل عامك العشرون ....

ذو النظارة السوداء وعصا المارشالية ينفخ في التلفاز .

"باسم الشعب ...."

"أيها الإخوة والأخوات .... "

تسمع عن استراحة الرئيس في بورفؤاد وعن تجهيزاتها الفاخرة .

يقولون "رغم آلاف الجنيهات التي أنفقت عليها لم تطأها قدماه مرة واحدة !!"

تسمع عن قصوره العديدة في كل البلاد .

تسترجع عصر المماليك العثمانية .

تتحسر على كل البلاد النامية التي أوقعها حظها في براثن الجهل والفقر وحكم العسكر.

(٢)

أحـــــلام ....

عيناها خضراوان ، وجهها خمري مستدير ، تعيش مـع أمـها وأخويها في الدور الأول ، تقف على باب الشقة أوقاتا كثيرة ، تعترضك نظراتها الجريئة ويقتحمك جسـمها الفائر ، لم تكمل السابعة عشـرة ولكنـها أكملـت كـل تقاسـيم الجسـد البديـع واكتسبت كل صفات الأنوثة .

تطمئن منك على أختك سعاد التي تراها باستمرار !

تتساءل عن الوقت الذي تعلنـه ساعة حائط كبيرة في وسط شقتهم ! .

تتكلم عن كتب الأدب التي تستهويك وتراها فـي يـــدك

باستمرار ، تستشعر لهفتها علـى الحديث معك ، مجرد الحديث !!

هل تحبك ؟ .

لا تجذبك روحها بقدر ما يجذبك جسدها الممتلئ وفخذاها الريانان وصدرها الناهد ! .

ذات مرة هممت أن تمسك بثدييها النافرين في تحد ولكنك تراجعت في اللحظة الأخيرة ، يدور في ذهنك الآن عراك جسديكما وتلاحم شفاهكما ...... ماذا لو حدث؟ .

منذ أسابيع أرسلت أحد الكتب مع سعاد ، بدت لها كتب الأدب ثقيلة ومغلقة ، شرحتها بكل يسر وسعاد بينكما لا تغيب عنكما وأمها هناك من فوق السلالم تنادي بقلق ، تخشى على العذراء ذات العينين الخضراوين .

تكتب في ثنيات الكتاب كلمة " أحبك " باللغة الإنجليزية ، لم ترد عليها أو تعقب ولكن ....!!

لهفتها ازدادت عليـك حـين تصعـد أو تـهبط سـلم البيـت ، صارت تتعمد مخاطبتك دون مبررات تتـوارى خلفها ، عيناها الخضراوان الواسعتان ظلتا تثيران بداخلك نداء الجسد أكثر من نداء الروح .

مع كـل نـداء تستدعي صورتها علها تطفئ النيران وتخمـد البراكين .

(٣)

عـــــادل ....

أحد أقاربك الشباب سخط على والده وعلى أسرته وعلى كل من حوله ، سخطه الأكبر انصب على الحياة ! .

أمسك خرطوشة الصيد التي يملكها أبوه وأطلقها ، أحشاءه تفجرت ودماءه تناثرت .

كان في السابعة عشرة منذ خمس سنوات ، يقطن في أخر الحي التجاري الغارق في الزحام ، ملكت يداه ما لم تملكه يد ، أنفق بلا حساب على نفسه وعلى أصدقائه ، ارتدى أغلى الملابس ، تابع أحدث صيحات الموضة ، نظرت إليه وقتها بإعجاب ممزوج بالحسد .

أراد مرافقة سعاد .

سعاد الساذجةُ التي أضعف روحها الفقر المدقع لم تطاوعه ،

دهس البيت كثيراً لأجلها .

كنت تصغره بعامين أو ثلاثة .

الآن ، خريف العام الواحد والثمانين بعد التسعمائة والآلف

هبط ، خيم بظلاله على كل ما حولك .

البلاد كلها تعمر بالقلق والترقب .

لا تدري لماذا تذكره في هذا الخريف الصاخب الممتلئ

بالضجيج ؟ .

(٤)

المصري ....

فريق كرة القدم البورسعيدي ينهزم أمام فريق الأهلي في استاد المدينة ، تخرج الجماهير غاضبة ، تكتسح الشوارع بالآلاف ، تضرب إشارات المرور وتحطم العربات ، تقذف عربات الأمن المركزي بالأحجار ، ترى القنابل المسيلة للدموع تقذف في الشارع للمرة الأولى ، تصيح في أملك :

- انظري ، العربات المدرعة تجتاح الشوارع .

تهبط من البيت وتنضم إلى الشراذم المتجمعة للهجوم تقذفون العربات المصفحة الضخمة التي تزحف إلى قلب الشارع بكل ما تقع عليه أيديكم ، تجبرونها على التقهقر ،

ينزل منها جنود الأمن المركزي بخوذاتهم المعدنية ودروعهم الواقية ، الهراوات الغليظة في أيديهم والصيحات المنظمة تنطلق من حناجرهم تعلن نية الهجوم ، تشتعل في النفوس الثورة ويثور التحدي .

يأتي مسعد بمظهره المهيب ومن خلفه عشرات ، خرجوا فجأة من الأزقة والحواري المجاورة ، "نقذف جميعا بالطوب والزجاج الفارغ ، تنهمر القذائف كالمطر ، يفرون أمامها ، تعلو صيحات التكبير ، عند شارع الثلاثيني تتوافد عربات مصفحة أخرى لتغلق الشارع من الجهة المقابلة ، نستشعر الخطر المحدق بنا ، نتفرق ، تبتلعنا الدور الخشبية المتراصة على جانبي الشارع ، تهجم المصفحات المدججة بالجنود تبحث عنا ، تصول وتجول ، تعربد بعجلاتها ، تندس رغم ضخامتها داخل الأزقة والحواري الضيقة ، في غمرة حماسك تتساءل

هل لهذا دخل بكرة القدم ؟ .

تنفي أعماقك بشدة هذا الهاجس .

ما كان لحماسك أي دخل بتلك اللعبة أو بغيرها .

كانت الفطرة هي التي توجهك .

(٥)

الطفولة ......

نزعت فيها بكل حواسك نحو القراءة ، تهرب إلى مبنى الثقافة تنعم بالقراءة المجانية ، ترتكن إلى كشك بائع الجرائد على ناصية شارع الأمين وتغرق في قراءة المجلات بأنواعها.

حينما صرت صبيا استهوتك الروائع الأدبية ، أصابك عدم الاستقرار ، أبحرت القراءة بعقلك في عوالم بعيدة ، حطت بك عند شطآن لا مستقر لبحورها ، حرمتك من السعادة الحقيقية التي نعم بها كل أترابك .

تندم الآن أنك قرأت وصرت مختلفا عن الجميع ، الموت

صار يتلاعب معك بكل سهولة ، تجثم فكرته قوية وواضحة كحل مثالي لكل مشاكل الحياة ولكل الضعف الممزوج بطبيعتك ، حل لمن يؤرقه الطموح وينغص عليه الفقر حياته ، حل لمن يدرك بعقله عبثية الاستمرار وحتمية الموت .

في سرادق عزاء قريبك الشاب كان العشرات من المعزين ، جانبا في ركن مظلم انتحبت بعنف .

هل كنت تحبه ؟ .

تكاد صورته الآن أن تختفي من عينيك ، سنوات قليلة مرت على حادثة انتحاره ولكن .... !

تعلل نفسك بعدم وجود بندقية صيد كتلك التي امتلكها عادل ، تبتاع من الصيدلي علبة كاملة لأقراص الفاليوم لعلها............... ، ترتعش أصابعك حين تهم بالتنفيذ ، تقشعر من البرودة الأبدية التي لا حياة بعدها .... !!

تنام أوقاتا كثيرة تحلم بالموت ، تنطلق فوهة مسدس نحوك،

تصحو متحشرج الأنفاس تكاد تختنق .

تواجه نفسك بأنها تجربة مريرة للغاية !! .

تدخل في محاورات داخلية عن حتمية الحياة ووجوبية الموت وفائدة المشوار الطويل !!

حين يلم بأجفانك التعب ترقب من النافذة النجوم البعيدة في عالمها المترامي ، تذكرك بضعفك وعذابك .

تتمنى كل أعماقك وكل خلجة من نفسك لو صرت جمادا فلا تحس أو تشعر أو يفكر عقلك .

(٦)

الخريف . . . . . .

الواحد والثمانون بعد التسعمائة والألف لا يزال في أوله والصيف يأبى أن يولي الأدبار ، يطل بأتون شمس حامية في منتصف النهار ويهرب ببرودة زاحفة في إصرار مع دخول الليل ، أحلام تأبى إلا أن تصدر لك نهديها في الصعود والهبوط ، لا ترحم سنواتك العشرين .

تهرب مع الصيادين ، يشدون الحبل من فوق الشاطئ ، يزحفون بسيقانهم فوق رمال جافة ومبتلة ، تتلوى أجسادهم في قوة لسحب الشباك الغارقة في البحر، يلعب بها الموج يريد اغتصابها وتحرير ما جلبته ولكن أيديهم القوية وجباههم

المعروقة بإصرار الحياة تنتزعها .

تصحو في الفجر ، ترافقهم إلى خارج المدينـة ، تلمح خيـوط الضـوء وهي تتفجـر في اللحظـات الأولى ، تنبسط مـن عمـق الظلمة المخيمة على كل الكون .

بعدها تبدأ المسيرة . . . .

بين إنبلاج صبح وأفول نهار . . . .

تتلوى الأبدان وتنصهر السواعد . . . . . .

تبحث عن جدوى للحياة وسر للشقاء . . . .

تواجـهك فلسـفة عميقـة للكـون تشـعر بـالعجز الشـديد عــن الوصول إليها .

"هـؤلاء الذيـن بخبـث يزيـدون الغضـب والوحشـية بألسنتهم . . .

ليسوا رعاة وهم بين الرعاة .

هؤلاء الذين لا توازن أفعالهم الخيرة أفعالهم الشريرة

لقد أسلموا ضمائرهم صانعة الشر إلى الآلهة المزيفة "

زرادشت

الغيلان تسعى في المدينة

(١)

المدينــــة ......

تكتظ بـالغيلان مـن آكلـي لحـوم البقـر وأصنـاف الجمـبري الفاخر، عصر السادات خلقهم ، نهض بهم من القاع ليظفروا بالقمة !

القمة لديك مثل عليا ومبادئ !!!

" الســادات يقبــض علــى الآلاف مــن أعضــاء الجماعــات الإسلامية"

" منظمة حقـوق الإنسان تعرب عن قلقها البالغ لتزايد عدد المعتقلين السياسيين في مصر "

" الفتنة الطائفية تشتعل في مصر .. .. "

" حادثة الزاوية الحمراء هي التي أشعلت نار الفتنة "

" مثول أحد المقاولين أمام المدعي العام الاشتراكي والكشف عن ثروة ضخمة باسمه تعدت الثلاثمائة مليون جنيه"

" المقاول بدأ عاملا في المعمار بميناء الإسكندرية واصبح في بضع سنوات من عصر يملك ملايين لا تحصى "

عساكر الأمن المركزي يحرسون بعصيهم الغليظة منافذ المنطقة الحرة بميناء بورسعيد ، يفتكون بكل من تسول له نفسه أن يقترب ويشاهد ما ترتكب أيديهم .

تتوارى الأقمشة داخل الصدور وحول السيقان ، يعبر المهربون بها تحت أعين الموظفين ، موظف الوردية يقبض التسعيرة داخل علبة من الكبريت غالبا ، أحيانا تكون عشرة جنيهات وأخرى تصبح عشرين ، من لا يدفع تتبعثر أشياءه فوق الأرض، تتخطفها عساكر الأمن المتربصة لتحافظ على

النظام!

" تجري المماليك بالأسواق ، تختطف ما تقع عليه أيديهم ، تمسك بالبغال وتنهب ما في الدكاكين وتفعل الفحشاء ، نالوا بامرأة في إحدى الغارات ، أخذوها من رجلها وحبسوها عندهم بالثكنات وتناوبوها جميعاً ، تدخل السلطان وأمر بجلد كل واحد ثلاثين جلدة !! "

فقط من يدفع ينجو ! .

السادات يعلن "نحن أمة من الشرفاء "

مسعد يسير في الشارع حليق الذقن بقميص وبنطلون، خلع عنه رداء الجماعة الزاهي ، لم يخلع عنه السكينة والنور اللذين أحاطا بطلته ، شبابه وأعوامه الثلاثون يشعان بنور طاغن ، المخبرون يملأون الشوارع والحارات ، رجال أمن الدولة لا حصر لهم ، السادات يعلن ......

" نحن أمة من الشرفاء "

" الصحف والإذاعات تكرر الأنباء "حملة اعتقالات واسعة في مصر تشمل رجال الدين المسلمين والمسيحيين "

" قيادات صحفية وسياسية تمتلئ بها السجون "

تكتشف أن فقرك ليس مادياً فقط .

تعلن لأمك أنك تحتاج قميصاً وبنطلوناً جديدين لقرب دخول الجامعة . تفضي إليك الأم حزينة بضيق ذات اليد. تمتلئ نفسك بالحنق على ذلك الرجل الجالس هناك في سدة الحكم . لازال يخطب .

" بني وطني . . . .

انكشفت مؤامرة الحاقدين أعداء النجاح ، أنصار الشيوعية.."

سحقاً للشيوعية ، يتهم بها كل أعدائه السياسيين !!

لازال رجال الكافيار والجمبري الطازج واللحم البقري يتناولون طعامهم ، يعبون زجاجات الخمر في الليل على أرصفة الشوارع وتمتد بهم جلسات المزاج حتى الصباح ،

ثمن زجاجة واحدة مما يشربون يحل مشكلتك !

تحتاج لرداء العام الجديد .

الخامس عشر من سبتمبر .

لم يتبق على العام الجامعي سوى أيام .

يتفوه الرئيس بخطاب . يعلن عن حركة التطهير العظيمة !!

يحدد إقامة الأنبا شنودة بصحراء النطرون . يختفي كل رجال الدين الذين كانت تموج بهم المدينة . منهم من لاذ بالفرار والغالب تتخطفهم أيدي رجال الأمن .

البعض نجح في التخفي إلى حين .

تهتف بها أمك " ردائي الجديد ضروري ولا أستطيع الاستغناء عنه " .

(٢)

تكتشــف . . . . . .

أن الشد بالحبال فوق الشاطئ كسر أحد ضلوعك الضعيفة ، يتدلى مسببا لك آلما بالغا ، بضعة أيام فوق الشاطئ لم تقتلك سوف تقتني البنطلون والقميص الجديدين ومعهم حذاء قيم لـن تـنزرع في جسـمك نظـرات اسـتعلاء مـن إحداهـن أو أحدهم ، لـن يقتلك ذلك الكبريـاء العقيـم الـذي تـراه في وجوه تقرأ المظهر ولا تقرأ ما في الروح .

هل يستطيع أن يقرا أحد ما في روحك ؟ .

تحبها ، جيهان ، تتمنى لو صارت .. . .

جيهان لن تكون أبدا لك ، لم تسـتطع حتى مخاطبتها فـــي الجامعة رغم زمالتها لك في الصف الدراسي .

تمسك بها في إحدى زوايا السلم ذات العينين الخضراوين ، تقبلها في اندفاع ، تتملص من ذراعيك ، تنفلت ، يبتلعها جوف البيت ، تصعد وتصعد حتى تدفن رأسك في الظلام .

ماذا فعلت ؟ ولماذا اندفعت ؟ .

ماذا تقول عنك ؟ وماذا قالت ؟ ومن أخبرت ؟ .

تسقط في هوة الجحيم . العشرون عاما التي عشتها تجثم على روحك كأنها مائتا عام ، أقراصك جاهزة في جيبك ، في الوقت المناسب سوف تتخذ القرار .

تفر إلى دار السينما المجاورة . تغرق في عرض مستمر لثلاثة أفلام رخيصة . تغيب عن أنباء الاعتقالات . تختفي عن وجه السادات وهو يهدد ويتوعد وينفخ في غليونه عبر التليفزيون يكتبون على علب السجائر "التدخين ضار جدا بالصحة !!!" يتلاشى كل رجال الجماعات الدينية . يحاصر الكومبارس

أميتاب بتشان . يقفـز في الهـواء . يطيـح بهم جميعـا في قفزة واحدة دائرية . يسـطع النجـم الأمريكـي كيرك دوجلاس في دور مصارع من العصر الروماني يقهر كل جلاديـه ، تـرى عمـلا لأحـد أفلام الممثلـة نـاهد شـريف الكثـيرة . تظـهر فيـه مـن جسدها أكثر مما تخفي .

بينما تلفظك دار السينما .

كنت تشعر بالشبع وينتابك الخدر .

(٣)

ذات عصاري . . . . . .

من أواخر سبتمبر كانت تقف ، مضيئة كبدر أخضر جذاب ، شعر كستنائي ينحدر على جلباب بيتي قديم يكشف من الصدر أكثر مما يغطي ، تبرز حلماتها قويتان من تحت الثوب القطني الضعيف ، تكشف الابتسامة عن أسنان كبيرة وثغر واسع وشفاه غليظة ، تهم أن تعتذر ، لا تنفلت بعيدا، تمتد يداك برفق تحتضن ذراعيها ، تغيب معها في عناق طويل ، تسمع وقع خطوات في الردهة ، تستفيق من الراحة اللذيذة بسرعة ، تعدو سريعا إلى السلم صاعدا ، لم ترو ظمأك اللحظات القصيرة ، تنام تحلم بها عارية ، تأتيك في الفراش وتمنحك

كل المحرمات ، يأتي مسعد ليعنفك ويحثك على الجهاد ويطالبك بالتعفف .

تحاصرك نفسك بقسوة وتعنفك على الضعف والاستسلام للرغبات الرخيصة وتدنيس المثل ، تعلن روحك الحرب بعد أن هبطت من عليائك وصرت أسفل سافلين ، تأتيك أحلام بعودها الريان وشعرها الكستنائي المنسدل على صدرها الناهد العاري .

تترك كل هذا الصراع وتذهب إليها . . . . . .

تبكي بعدها بحرارة .

من ينجيك من كل هذا ؟ .

(٤)

تبتاع الرداء ......

اللعين ، قميص أنيق وبنطلون جديد وحذاء إيطالي من النوع الغالي ، تستعد لدخول الجامعة .

" أطنان من الأقمشة المستوردة ، عشرات من أجهزة الفيديو والمسجلات والتليفزيونات الملونة تم الكشف عنها وهي تعبر الحاجز الجمركي"

" التحقيق مع العديد من موظفي الجمارك ، الكشف عن تورط العديد منهم في عملية التهريب ، الزج بثلاثة في السجن ! " .

قميص وبنطلون فقط ! .

" سيارة أحد مسئولي المحافظة تم العثور بها على مخبأ لتهريب الأقمشة والأجهزة الكهربائية ، التحفظ على العربة والسائق واستدعاء المسئول للتحقيق معه " .

عساكر الأمن المركزي لا يزالون يضربون العجائز ويتهجمون على المسافرين . نجم النادي المصري ينزل من عربته الفاخرة التي أهداها له أحد الغيلان آكلي اللحم البقري والكفيار يبتاع من الجمبري الفاخر ! يدخل إلى العربة باسما وبجواره امرأة شقراء الشعر ، "لم تستطع أن تتبين من الملامح سوى لون الشعر". "المصري البورسعيدي يحقق انتصارات كروية وإشارات المرور التي كسرتها الجماهير تم إصلاحها " أحد التجار تبرع بنصف مليون جنيه لعلاج كل الخسائر !! آخر يمنح النادي ثلاثة أرباع المليون جنيه بعد الفوز في إحدى المباريات .

قميص وبنطلون لا غير !.

تفتح الجامعة أبوابها .

يبقى السادات في سدة الحكم يندد بأعدائه الذين أودعهم غياهب السجون وعلى رأسهم أحد رجال الدين البارزين. . .

"أهو قاعد زي الكلب في السجن . . . ."

" لازال التحقيق مستمرا مع المقاول رشاد عثمان عامل المعمار " .

" رشاد عثمان يتهم نسيب السادات عثمان أحمد عثمان والمليونير توفيق عبد الحي تاجر صفقات الفراخ الشهيرة " .

" اكتشاف فساد هذه الفراخ وعدم صلاحيتها للاستهلاك الآدمي " .

تقف جيهان ، أنيقة ، باهرة ، تحلق عيناك إليها ، تهفو من حولها ، القميص والبنطلون والحذاء الغالي يجذبون الأنظار ، تتنامى وسط الأحاديث بعض الكلمات عن السياسة، تتوه بعيدا وسط ضجيج الفتيات ومهرجان أزيائهن الذي

يجذب كل انتباه ، ترتاح الأصابع فوق الدرابزين ، تتقابل مع أصابع أحلام ، تنساب معها ذات العيون الخضراء ، يلتصق بها جسمك ، تشتد لها رغبتك ، في الركن المعتم من الجدار تستكين ، ترتوي الشفاه العطشى حتى تنطفئ النار وتهدأ الشهوة ، تصعد .

ترتمي فوق الجدار تبكي . يأتيك عادل قريبك ممسكا بالبندقية في يده . يقدمها لك طائعا مختارا وهو يقول : خذ تنظر مأخوذا . يدفعك بها مرة أخرى : خذ تمتنع ، يقول لك : خذ لقد سبقتك إلى النعيم الأبدي بينما أنت في السعير غارق حتى أذنيك .

تدفن رأسك في يديك عل الصورة تختفي .

تظل البندقية معلقة فوق رأسك .

(٥)

سعاد ....

تصفحها ، وجدت صورة لعادل ومن خلف الصورة كان إهداء مصحوبا بكلمة حب رقيقة ، تتهاوى الدموع من عينيها ، تشعر بدموعها تحرقك ، في حجرتك قبعت تشعر بالضيق ، تدخل أمك : - كانت تحبه .

- وسمحت لها بهذا يا أمي ؟
- يا ولدي لم يتعد الأمر ما قلته لك .

تتذكر أحلام بين ذراعيك ، تعقب بسخرية :

- لم يتعد الأمر أن يكون حبا !!
- كان حبا من طرف واحد ، أخلاقها منعتها أن

تتجاوب معه ، لا تخفي عني شيئا .

يخيم صمت عميق تغرقان فيه ، تتملكك رهبة حينما تدرك أنكما تتكلمان عن ميت ، تقول أمك بأسى : ربنا يرحمه ، كان زينة الشباب .   تعقب في استسلام : نعم .

في داخلك تدرك سبب تغاضيه عن فقركم وبؤسكم الشديد ، تقف بالبلكون لعلك ترى جيهان ، تخرج لحظات معدودة ، ترمي بوجهها أمامك في دلال ثم تدخل .

تتساءل : هل تحبها حقا ؟ .

قلبك يهفو إليها وينبض بعنف كلما رآها .

حين تعبر الشارع ينظر إليك بعض الغيلان بازدراء تمضي بينهم شاعرا بالمهانة ، يجلسون أمام محلات عامرة بكافة أنواع البضائع المستوردة ، في انتظارهم تربط أحدث وأغلى السيارات ، يكركر بعضهم بالشيشة الممزوجة بقطع الحشيش ، يبصقون على الأرض تجاه المارة بعدم اكتراث .

تسخط علـى قرارات وزارة الاقتصاد الصادرة عام ٧٦ بجعل بورسعيد منطقة حرة . يخطر أمامك دوما الأمير الصبي رضا بهلوي بثياب البحرية الموشاة فوق اليخت وأنت تحييه بيدك الصغيرة وسط آلاف الأيدي .

يخترق بمركبه الميناء في موكب بحري مهيب .

ينزوي الآن في أحد البلدان ينعم بما كنزه أبوه من أموال .

يبقى في داخلك السؤال .

ما الذي ينتظرك ؟ .

الذين يقدمون التضحيات والأمراء المشعوذون . .

قد أخضعوا البشـــر لنير ســـــيادتهم . .

ليدمروا الوجود بواســطة أعمال الشر . .

سوف يلقون العذاب بأرواحهم وضمائرهم . .

عنـــدما يأتـــون "إلـى الـــبرزخ " . .

وإلى الأبد سينزلون في مقر "الشر" . .

زرادشت

السجن

(١)

أوائل أكتوبر ......

يشتد الخريف وتستفحل زوابعــه .

" تقترب عربة مدفعية بطـابور عرض السادس مـن أكتوبر مـن منصـة الرئيس ، السادات في بزة العـرض العسـكرية ، يشـمخ بكل أنفه ويحلق بوجهه نحو السماء ، طائرات المـيراج ترسم خطوطا طولية وعرضية ، ينزل الملازم أول خالد الاسلامبولي من العربة ويتبعه اثنان برشاشات مرفوعة، يتوجهون في سـرعة نحو المنصة يمطرونها بالرصاص ، يطوحون بقنـابل يدويـة في اتجاهها ، لا تنفجر ، يطلقـون الرصاص نحـو مقعـد الرئاسـة ، يصرخ خالد بمن حول المقعد من الجالسين " ابعدوا أنا عاوز

ابن .... ده " . " تسيل دماء الكثيرين ، يسانده زميلاه ، يتأكدون أنهم نفذوا المهمة " .

تدخل مع أحلام البيت في غياب أمها وأخويها ، تنام معها تتطارحا الغرام ، تنبهك أنها عذراء وتنوي أن تبقى كذلك، لا تحترم فيها الخوف على ذلك الغشاء الواهي ولكنك تحترم رغبتها ، ترتمي فوقك تحيطك بستائر شعرها الكثيف ، تغيب في اخضرار عينيها الواسعتين ، تستثيرك رائحة الجسد القوية وسخونة الجسم الطري ، تتعجب من كل حصون الخجل والعفة التي كانت تحتمي خلفها وكيف انهارت كلها ولم يبق أي حياء منك أو من عريها الفاضح!! تهتف بها وأنت في قمة لذتك : السادات مات .

تلثمك بشفاهها الغليظة وتهمس في وجهك بنشوة : وإيه يعني ما يموت ، خلينا في إللي إحنا فيه والا وحش ده .

تعقب مصرا : مسعد قبضوا عليه ، أمسكوا به أواخر الليل قبل

صلاة الفجر ، أتعرفينه ؟ كان فتوة الشارع ذات يوم .

تحلق في السقف الكئيب تعقب بأسى يخنق روحك : كان فتوة عادلا يرد رعاع الشارع وأوباشه ، من يفعل الآن ؟

- عرفاه وإيه يعني أهم قبضوا علي كتير غيره .
- لم يقبضوا علي مثلا .
- أنت ما بتشتغلش في السياسة . . . . . كنت عاوزهم يقبضوا عليك ؟

تحدق طويلا في العينين الخضراوين ، توقن أنها لا تفهم معاناتك ، تستسلم لملمس الجسد الساخن :

- أتعرفين من قتل السادات ؟ شاب لم يتعد الرابعة والعشرين تخرج من الكلية الحربية ، الحياة كلها كانت أمامه ، ضحى بها حين أطلق أول رصاصة .
- وإيه يهمنا أهو حيأخد عقابه وحيعدمــــوه إن ما كانش مات من الرصاص الذي أصابه .

تتوالى على عقلك مانشيتات الصحف وعناوين الإذاعات الأجنبية " فرض حالة الطوارئ والأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد " .

"الضابط المنشق عبود الزمر يتمرد في محافظة أسيوط ، يهاجم مبنى مديرية الأمن والمحافظة ، يلتحم مع البوليس وقوات الشرطة ، تدور معارك طاحنة ، يسقط العديد فيها " .

" يرأس صوفي أبو طالب الحكم الانتقالي في البلاد " .

تتساءل هل ما حدث حقيقة ؟

هل سقط السادات فعلا ؟

هل أطلقوا عليه الرصاص بالفعل ؟

الشوارع مستكينة ، هادئة ، الجوامع الصغيرة خلت تقريبا من كل روادها ، يخاف الكل رجال أمن الدولة المنبثون في كل ركن ، ترحل أحلام إلى كلية الآداب جامعة المنصورة ، تتحول كلية التجارة ببورفؤاد إلى ثكنة مدججة برجال

الشرطة ومباحث أمن الدولة المسلحين ، يضايقك التفتيش الذاتي أحيانا على بوابة الجامعة ، تمتلئ بالغليان لمنع الفتيات المنقبات من دخول الحرم .

تبقى أمام عينيك الحقيقة الدامغة .

أن السادات قد مات .

(٢)

هــل ......

يعاني كل الشباب في تلك المرحلـة العمريـة مـن الصـراع الذي وقعت فيه ؟ . هل يمرون بالتجربـة وتراودهـم فكـرة الموت بهذا الإلحاح ؟ .

لـو كان يحدث فإنهم لم يعايشوا محنة عصر السادات مثلما عايشتها وخضت غمارها .

لازالت النجوم في السماء تومـض لك في الليل ساخرة من ضعفك ، ترتاد أغلب سينمات المدينة ، تغـرق في عالمـها ، تستمرئ غيبوبتك اللذيذة ، تطل عليك صورة فوق الجدار لأبيك يرتدي الطربوش والبدلة ، عينـاه قويتـان لا خــوف

فيهما ، تتحسر على الزمن الماضي حينما كانت تتعدد الحريات السياسية رغم الملكية وفسادها ، تأتي إليك جيهان في فناء الجامعة وتخاطبك ، يدوم اللقاء بينكما ساعات كثيرة، في داخلك تكتشف أن نار الشوق وبركان اللهفة قد خمدا تجاهها .

لازالت الفتاة العارية ذات العينين الخضراوين تعذب ضميرك كلما راودتك صورتها ، تهاجمك في الليالي المنعزلة الموحشة ويتخلل عالمك الضبابي وجه أمها المسكينة وصوتها القلق ينادي عليها من فوق السلالم ، لم يأتك عادل بعد أن تهربت منه وتنصلت من بندقيته اللعينة الملوثة بالدماء ، غطت دماؤه كل الشقة ، هجرتها أسرته إلى أخرى فاخرة بأحد الأحياء الراقية ، أمك وأختك لا يملكون سوى هذه الشقة وهذا البيت الخشبي القديم !! .

الآن تعزف عن عالم الكتب الذي طالما غرقت فيه ، ما عدت

تطيق تلك الروايات الحالمة بعالمها المثالي ، صرت تكره أحلام اليقظة التي كانت القراءة تخلفك لتعيش فيها .

تقف جيهان في الشرفة ، تطل عليها ، ما عدت تشعر بتلك النشوة العارمة التي كانت تتملكك بمجرد ظهورها ، تخاطبها الآن في الجامعة بكل بساطة وبكل تلقائية تكتشف أن ملامحها عن قرب تكاد تكون ممسوخة .

هل هذه حقا الفتاة التي أحببتها وارتسمت صورتها أمامك على البعد بمقاييس كاملة للجمال ؟ .

الجميلات في كل مكان ، يباغتن وجهك بين المحاضرات وفي قاعات العملي ، يضاحكن عينيك ، لعلك ؟ ؟. . . . .

لازالت سحب الحزن الدفينة ترتسم فوق ملامح وجهك ، لم تستطع أن ترتاد عالم الموت ! ولم تستطع أن تنضم إلى كتائب الأخوان أو أية كتائب أخرى ، ولم تستطع أن تصير مثل الشاب مسعد الملقى الآن في السجن يذوق كل

أصناف العذاب .

هل بلغت من التفاهة أن نأيت بنفسك عن كل هذا ؟

يجلسون في عرض الشارع ، يتفاخرون بما ملكته أيديهم من ثمار عصر السادات ، الغيلان الذين يأكلون بشراهة التفاح الأمريكاني واللحم البقري المصنع همبورجر أو محشوا في عبوات السجق .

ولى عصر السادات ولكنهم لم يولوا .

باقون ليشهدوا بما أسبغ عليهم ولكنهم لا يشهدون ، سادرون في الطعام والشراب بشراهة منكرة وتبحلق عيونهم في المارة بصورة كريهة .

ما عادت تكفيهم لحوم الثيران والبقر !! .

(٣)

أحـلام ......

هل تأتي ؟ .

تظنها لن تأتي .

بددت كل السمو الـذي غلف علاقتكما ، نزلت بها إلى درك سفلي بعد معاشرتك إياها ، يحتاجها جسدك ، تنفر روحـك منها ، تتوق إلى الحب والخلاص .

من تخلصك من هذا العذاب ؟ .

ليست جيهان التي غرقت في وهم حبها ، هل مـوت السادات له علاقة ما بموت مشاعرك تجاه جيهان ؟ مـا الـذي جعـل النهايتين مترادفتين إلى هذا الحد ؟

تسأل نفسك أسئلة كثيرة . تحتويك جدران الغرفة بالليل . تحيطك شوارع المدينة بالنهار . لا تستطيع أن تغرق في عالمها . تنفر منه !

تشعر بالأسى على كل ما ترى حولك . يبقى وجه أمك الطيب ، الضعيف ، المستسلم لإرادة الحياة ، يحثك على المقاومة وبذل الكثير من الجهد والمثابرة ، تجلس إليها بالساعات تحكي لك عن أيام زمان أيام موت أبيك وإظلام كل الدنيا من حولها وإعراض الأهل والأصدقاء عنكم . تستمتع بالذكريات عن الأيام الخوالي . تتلمس كل عذابها وشقائها في تربيتكم . تتوصل إلى أن الموت تفكير أناني إلى حد كبير . ترسخ في ذاكرتك سعاد بوجهها البريء التي أحبت في صمت وصار حبها إلى الموت ،اندثر قبل أن يولد ويصير كائنا حقيقيا .

حين تأكل تشعر بالدماء الحارة تتدفق في عروقك ، تزيد من

التصاقك بالأرض وتبعدك كل البعد عن عالم السماء المترامي . تغرق مع فتيات الجامعة ومع أحاديثهن التافهة . تشعر بوهم السعادة . تحاول نسيان كل الاضطرابات السياسية التي تمخضت عن موت السادات . تحاول أن تعمي عينيك عن حرس الجامعة المدججين بالسلاح ومضايقاتهم السمجة. تتغاضى عن ضباط الشرطة المنتفخين برتبهم يعترضون الفتيات ويجتذبون الجميلات منهن . تتغافل عن كل الرشاشات التي ذرعت في أيدي عساكر الأمن عند نواصي الشوارع الرئيسية ، عند مبنى المحافظة ، على باب كل مصلحة أو هيئة ، حتى مبنى الثقافة !! .

تصير حياتك أكثر تواضعا ، تتغاضى عن كل تلك الشروط والحواجز التي وضعتها للسمو بروحك وبأفعالك ، تتضاءل مشاعر الندم عن العادة التي كنت تمارسها حتى تكاد تتلاشى ، تفتح عينيك فيمن هم حولك بعد فترة من الزمن،

تكتشف أنك تصحو من ظلام معتم كـاد يجثـم علـى كـل روحك .

(٤)

الشتاء ......

في لياليه الباردة تسأل أمك عن الحب ، تحكي لك عن حبها لأبيك الراحل وكيف توج ذلك الحب بالزواج ، تسأل سعاد عن أحلام الضائعة منك فلا تجيبك بشيء ، تقبع أحيانا كثيرة وراء النافذة ترقب السماء الغائمة ، تشعر بقلة الحيلة ، سحبها الكثيفة تشعرك بسجن لا قيود به أو سلاسل ، زنزانتك هي البيوت والشوارع والمدينة والجامعة وكل ما اعتادت قدماك السير فيه ، ترغب في السباحة بعيدا ، تمرح مع الموج الهادر وتتقاذفك الأعاصير الجارفة ، ربما تجد شيئا غريبا أو تعثر بفلك النجاة !! .

تفتح غرفتك ذات يوم أختك سعاد قائلة :

- أحلام جت .

- فين ؟ .

- حيكون فين ؟ بره .

تنهض ، تبحث عنها ، أحلام الضائعة منك ، لا تجدها ، يخبرونك أنها نزلت من البيت لتأتي ببعض أشياء ، لا تعود أبدا، تشعر بالقهر يسيطر على أحاسيسك ومشاعرك .

هل تتهمك ؟ هل تكرهك ؟ شاركتك نفس المسئولية ، انجرفت معك بكل ليونة وسهولة ، لم تقاوم .

تصب جام غضبك على المحاضرات ، تغرق في أروقة الكلية مع شباب وفتيات ، أبدا يظل يؤرقك ذلك الجزء القابع في أعماقك المسمى " اللا شعور " تشعر دوما بعدم الرضا .

تتمنى أن يمر الشتاء سريعا ويأتي الصيف .

أحـــــلام

(١)

جسدها الخمري ......

وقفت في المرآة تتأمله ، النضارة والشباب يتبديان في صورتـه ، مفاتنـه تـبرز في وضـوح مثـير ، عقصـت شـعرها الكسـتنائي المسترسل ، تبدت أمام المرآة عارية تماما ، تســاءلت " ألا يســتحق هذا الجــسد أن يعشــق" .

أنزلت الشعر المعقوص واستسلمت لقميصها الداخلي تحشر جســمها فيـه ، بالكـاد يدخـل ، تـترجرج أفخاذهـا الممتلئـة ومؤخرتها بداخله ، تناجي نفسها " لماذا لا يحبني خالد مثلما أحبه ؟ أتمنى لو منحته كل ما يريد ، فقط ...."

تلمحه في الصعود والنزول ، يأسرها ذلك الحزن فـي عينيــه

وتستميلها تلك الرقـة التي تفيض من مخارج كلماته .

" لو سمحت ، متشكر جدا . . . . " تتمنى لـو يكـون لها تتمنى ذلك من كل قلبها .

يصيح أخوها حين يستبد به الجوع .

" بنت يا أحلام ، أنت يا بنت ، اجري إحضري الغدا . . . . . "

بينما تقدم له الطعام تقارن في حسرة بينه وبين خـالد ، يصعد وينزل في سكون وبلا ضجة ، يخاطب أخته سعاد بكـل ذوق ، هكذا ترى . . . .

حينما يغضب أخوها ، يصرخ كالمجنون .

- يا بنت الكلب !! .

أبوهم مات ومع ذلك يشتمه ، أمها لا حـول لها ولا قـوة ، لا تملك من أمرها شيئا ، أحيانا كثيرة يطردونها هـو وأخـوه الأكبر خارج الشقة ، يصرخـون في وجهها " روحـي يـا وليـه داهية تاخدك " .

تولول وتبكي بحرقة ، تجمع الجيران وتشهدهم ، يقف خالد ينظر لها بعينيه الرماديتين ، تقرأ الرغبة فيهما ، تميز ذلك بكل وضوح ، يشتهيها مثلما تشتهيه ، لو ينطق ، لو يفعل شيئا .

- بنت يا أحلام . . . .

يفزعها صوت أخيها الأجش ، يأتي من سوق التجاري متعبا ، هائجا ، يحصي نقوده المبعثرة فوق الفراش ، بعد أن يتعب وتلبي له كل مطالبه ، يذهب في الشخير ، تقف في المشربية ترقب الشارع ، يتراص البائعون على الرصيف المقابل ، يرقبونها حين تطل ، تلسعها نظراتهم المستفزة .

في داخلها تشعر بالاشمئزاز منهم ، تقول لنفسها بقرف . . . . .

" ولا واحد فيهم متعلم " كلهم مثل أخيها ويمكن أسوأ منه ، توارب المشربية ، تتلصص من بين الشقوق لعله يأتي ، تعثر عيناها به على البعد يشق الشارع بقامته الطويلة وبأكتافه العريضة ، يأسرها كبرياؤه الشديد ، يختفي في جوف

البيت .

تجري نحو الباب لتكون في استقباله وهو يصعد الدرج .

(٢)

تخبر ....

سعاد برغبتها أن يشرح لها خالد بعض المناهج في كتب الآداب ، تعللت بصعوبة الموضوعات التي تدرسها في الكلية، يجلس معها ، يكتب لها أثناء شرحه المستفيض ....

" أحبك " يدونها بالإنجليزية .

تشعر بالنشوة وبالغبطة الشديدة تستولي عليها ، تتأكد أنه يبادلها نفس المشاعر والأحاسيس التي تجيش بصدرها وتمور في أغوارها .

ودت لو تجيبه " وأنا أيضا " .

أخته سعاد كانت منشغلة هناك مع الأم بينما كانت عيونهما

تتناجيان ، يبادلها الآن نفس المشاعر التي تكنها له .

بينما تأخذ كتبها وتنزل الدرج كانت تحلق ، تتأمل الجملة مرات ومرات ، تحلم به ، يعانقها ويضمها إليه ، تأتيها صورته المهذبة بهندامه الأنيق بينما تتصاعد بجوار الصورة هيئة أخيها المزرية وأكوام نقوده المبعثرة فوق الفراش وهو كالمسعور ينقض عليها ويفرد أطرافها ويسب كل الناس .

تتبين الفرق الشاسع فتنقض على الصورة تلثم كل أهدابها حتى تغيب في النشوة .

(٣)

الأم ....

تحذرها من خالد ، يمسك بذراعها في إحدى المرات وتغيب معه في عناق طويل طالما تمنته في أحلامها ، تفرقهما خطوات الأم المفاجئة .

بلا أمل تنساق معه في التيار اللذيذ ، تتساءل في خوف ، ماذا لو جنى فاكهتها التي طابت واستوت ؟

إنه غير قادر على الزواج ، إنها تعشقه ، تأسرها ثقافته ويسحر لبها أفقه الواسع ....

تترك له كل الجسد بلا مقاومة ، تستسلم بضعف شديد ، تحذره

- لا تدخل المحظور .

يعدها بالا يفعل ، ماذا لو فعل ؟ .

ذات مرة يهم ، تذكره ، يتراجع .

كما ولدتها أمها وقفت أمامه ، كما ولدته أمه احتضنها .

قال لها : لا أمـل لي في الزواج ولـو بعـد عشرة أعـوام ، إنـني شاب ضائع !! .

ترن كلماته في أعماقها تحذرها على الدوام .

" لا أمل لي في الزواج ولو بعد عشرة أعوام " .

تظل تتساءل في خوف .

ماذا سيفعل معها ؟ .

وماذا ستفعل بنفسها معه ؟ .

(٤)

الأم ......

تفضي معها بأسرار الماضي ، عانت الأمرين من أخويها الذل والمهانة ، حكت لها عن أبيها وكيف أخذ شرفها فاضطرتها الظروف للموافقة عليه ، كان مجرد غفير لا شأن له ولا مستقبل، قالت بأسى :

- حين يضيع الشرف لا يصبح لدى الواحدة منا شيء تخاف عليه .
- وهل كان يحبك ؟ .
- ضحك على عقلي ، كنت صغيرة ، واخدني طيش الشباب ولما أفقت كان كل شيء قد ضاع

وقتها ترضى الواحدة منا بأي شئ ، المهم أن تتستر .

يدخل متولي أخوها ، ينظر إليهما شذرا ، يقول لهما بتهكم :

- قاعدين تحكوا طول النهار ، ما تقوموا تجهزوا لنا لقمة نأكلها .

تنظران إليه بضعف ، تنهض أحلام تحمل العبء عن أمها ، تجلس الأم مستكينة :

- واحد من الجدعان أصحابي متكلم على أحلام .
- إذاي ؟ دي متعلمة وفي الجامعة .
- وإيه يعني هو التعليم حيعملها إيه دي الشهادة ذي قلتها ، ده لولا أنها أحبت تكمل تعليمها ماكنش حد فينا سأل فيها .
- يا ابني حرام عليك وتلاقيه ليس معه أي شهادة .
- بيكسب مثل أجدعها راجل فيكي يا بورسعيد ، لـه فرش في التجاري وبيبيع في اليوم بما لا يقل

عـــن خمسمائة جنيه .

- يابني ....

يقاطعها صائحا :

- بس نقطينا بسكوتك ، ده بدل ما تقنعيها .

تأتي أحلام ، تنظر إليهم بتوجس ، يقول لها :

- إيه رأيك في اللي سمعتيه .

- حكمل دراستي ......

- ما فيش دراسة من هنا ورايح .

- لازم أكمل دراستي ولن أتزوج غصبا .

تنـهال الصفعـات علـى وجهـها ، ترتمـي علـى أمـها ، تنـهال الضربات علـى ظـهر الأم تسـتهدف أحـلام ، تصـرخ الأم في وجهه قائلة :

- بس لما يحضر أخوك الكبير .

يخرج لاعنا وهو يسب .

تدركان أن الأخ الأكبر لن يفعل شيئا له .

تنساب دموع أحلام على صدر أمها ، تنتحب بشدة ، تقول لها الأم مواسية :

- أيام قليلة وتبدأ دراستك وتبعدي عن كل الهم ده.

تتنهد ، تترقب السفر بفارغ الصبر .

(٥)

سامح ......

حين رآها في السنة الأولى بالجامعة حاول أن يتودد إليها ، صدته بصورة عنيفة ، تغير عنفها مع مرور الأيام حتى صار توددها إليه طبيعياً غير جاف .

جلست معه على شاطئ النيل في مدينة المنصورة حين بدأ العام الدراسي ، قال لها :

-أرغب في الاستقرار .

- والجامعة .

- إنني في السنة النهائية وبعد التخرج مباشرة يجب أن أتزوج ، أهلي يلحون على موضوع زواجي منذ

سنوات وأنا أتهرب منه حتى قابلتك .

- ماذا تعني ؟ إنني لازلت في سنة ثانية .

- لا يهم ، نتزوج وتكملي تعليمك لن أمنعك .

- لن يوافق أهلي على ذلك . . . . . .

في أغوارها كانت تتمنى ، تتحجج فقط بأهلها ، تسوق دلالها عليه ، تمعن بإصرار على عدم موافقة أهلها ، يقول لها متوسلاً:

- أرجوك دعيني أقابلهم وسوف أقوم بإقناعهم .

توازن صورته مع صورة خالد ، تبرز الصورتان بوضوح في مواجهتها ، تنام في المدينة الجامعية وهي تمعن الفكر ، بعد معارك ضارية تنتصر صورة سامح زميلها وتتراجع صورة خالد ، نفرت من استغلاله لضعفها ، تحاول نسيان ما فعلاه . تقرر أن تكون امرأة صالحة للزواج . تتراءى في مخيلتها صور لأولادها الذين لم يأتوا بعد وهم يحبون فوق الأرض من

حولها بينما يظهر زميلها سامح في الصورة مبتسـماً متمنياً أن يلبي كل طلباتها .

يأخذها في أحضانه .

تستسـلم لـه .

قلت " سأمضي نحو أرض أخرى ، فوق بحر أخر
مدينة أجمل من هذه ستتراءى لي
اللعنة تطارد هنا كل أعمالي
وعلى قلبي شاهد من شواهد القبور
حتى متى تبقى روحي في هذا القفر ؟

كفافيس

اغـــتراب

(١)

السـفر ......

تعزم عليه ، المملكة الأردنية ، لم تكن تلزمك تأشيرة لدخولها كل ما كان عليك هـو الحصـول علـى ثمـن السفر والترحـال ، بعد محاورات عنيفة أقنعـت أمـك ، قـالت لـك والدمـوع تطفر من عينيها :

- لا أريد أن أفقـدك ، ليـس لي في الدنيـا غيرك أنـت وسعاد .

أواخر شهر مـايو تنخـرط في بعـض الأشـغال المضنيـة علـى رصيف الميناء ، تعتق مع آخرين معلبات الأسماك المستوردة وكراتين اللحوم المجمدة فوق عربات النقل ، تحمل زنابيل

الفحم الأسود من قلب البواخر فوق ظهرك النحيف ، تتمايل بها سيقانك ، تئن في إصرار ، حين يكتمل المبلغ تتوقف .

قالت لك الفتاة ذات الشعر الأصفر المصبوغ والوجه المغطي بطبقات كثيفة من المكياج :

- تذكرة السفر ذهاب وعودة مائتان وعشرة جنيهات.

ظللت تحلم بالمبلغ طيلة العام ، كان لا بد منه لتستقل المركب وتبحر بعيدا .

- توصلك المركب إلى العقبة ومن هناك تركب أي مواصلة للعاصمة عمان ، ليس فيها أية صعوبة .

قالت الفتاة في شركة السياحة ، حين عدت إليها كانت ملامحها لا تزال مختفية تحت طبقات المكياج الكثيفة ووجهها بارد للغاية !!

كنت تملك ذلك المبلغ اللعين ، دفعت ثمنه عرق أيام مضنية وعذاب ساعات متواصلة . ابتسمت لك في رقة مصطنعة

وأعطتك التذكرة ، تمنت لك رحلة سعيدة ، وددت لو تخبرها كم كانت رحلتك الحقيقية طويلة ومعاناتك لا حد لها، وددت لو تخبرها أن الرحلة السعيدة إنما هي للأثرياء وللغيلان آكلي اللحم البقري والكافيار ، وددت لو تخبرها أنك بعيد كل البعد عن الرحلة السعيدة التي تتمناها لك بابتسامة تتوجها رقة مصطنعة ! .

تقف عند أسوار ميناء السويس ، ترقب المياه على البعد ، تنتظر الدخول لرؤية الباخرة التي يدفعك الشوق إليها، يجلس الضابط على الكرسي ومن حوله بضعة جنود ، يبرز كل منكم جوازه وتذكرته ، حين يتأكد يسمح بالدخول ، الصف طويل يحتاج إلى نهاراً كامل ومعه ليل طويل ، تتساءل ، "هل تنتظرهم المركب ؟ وهل تغير مواعيدها الثابتة من ميناء السويس إلى ميناء العقبة بسبب ما يفعله هذا الذي يقدم الخدمة إلى المواطنين فيوفر لهم النظام

والأمن وفي المقابل ينزل بهم العذاب والمهانة ويعرضهم للضياع !!

كنت واقفاً ترقبهم بعد أن دخلت ، وجدتهم يتزاحمون على البوابة وصفهم يتلوى بلا نهاية ، تتهاوى أحياناً الشتائم والركلات على من يوقعه الحظ في المواجهة !!

حين جاءت المواجهة فعلها " خالد الاسلامبولي وعبد الحميد عبد السلام وعطا طايل وحسين عباس "

لم يخشو الموت أو ترهبهم اللحظة ، تغمض عينيك بعيداً عن الزحام الموجع داخل الميناء ، تتوغل لتبحث عنها . . . .

بعد ساعات طويلة من الانتظار جمعوا جوازات السفر ، تراقص في أيديهم جوازك الصغير يحمل كل أحلامك ، بعد الختم الضئيل الذي وقع على إحدى صفحاته البيضاء ذهبت إليها، الباخرة الرائعة ، تتجاوب في حناياك اللهفة ويبحر في أعماقك الشوق .

(٢)

وسط ......

أحد الميادين جلس العشرات من حولك ، صعايدة ، فلاحون، فلسطينيون ، سودانيون ، أعداد كثيرة من الطلبة.

الوقت أوائل يوليو من عام ١٩٨٢ ، تحتويك ، العاصمة الأردنية عمان بعض أشجار عتيقة تظلل الأرصفة ، يتجمعون تحتها ، يتطاير الغبار من حولك ، تأنس بالعشرات ، يشاركونك نفس المصير، تمضي الشهور الماضية في لمحة غامضة مركزة ، تطغى على مخيلتك دوماً صورة الضابط الشاب يجري والرشاش في يده وسط زملائه ، سيارة نقل تقترب ، يتسابقون إليها ، يلحون في السؤال ، يصعد إليها ثلاثة من العمال بالكاد!

هل ستجري مثل هؤلاء تسابقهم ؟ .

تزاحمهم بأكتافك مثلما يفعلون ؟ .

وسط الدبابات والعربات المدرعة ، في قلب طوابير العرض العسكري وفرق الجيش ، عرضها التليفزيون خاطفة ، غامضة .

تأتي عربة ملاكي أنيقة ، تركبها سيدتان في مقتبل الشباب، يتبدى الجمال والرقة في ملامحهما ، تقفان بالعربة في جوارك ، تشيران إليك ، يجري بعض الفلاحين ، تنظر المرأتان إليك بأسف ، يركب أولئك الفلاحون في الخلف ، تنطلق العربة مخلفة سحابة رمادية كئيبة . . . .

تتساءل ، ما الذي سيحدث ؟ .

أعداد من الطلبة الرابضة في الميدان بدأت تنصرف ، ولى معظم النهار تقريباً وهم جالسون بلا أمل ، كتب كثيرة جئت بها ، تقبع الآن في قاع حقيبتك لعل . . . . ، لن تمسها ابداً ، عهدك الذي قطعته منذ حوالي العام لم يتغير ،

مــن يـــــدري ؟
تأتي عربات أخرى كثيرة ثم تذهب .
تظل في الميدان تنتظر .

(٣)

عمان ......

حين نزلت اليـها التقيـت بنفـادي وزوجتـه جميلـة ، امـرأة أنوثتها فجة، طاغية ، استثارتك منذ الوهلة الأولى !! ، نفـادي أحد المصريين الذيـن إسـتقر بـهم المقـام في الأردن ، في الثلاثينات من العمر ، منحك غرفة بدورة مياه مشتركة ، عشرة دينارات أردنية كانت الإيجـار ، أخذهـا منـك مقدماً قبـل أن تطأها قدماك .

يشتم جميلة ويسبها في عز الليـل وتكيـل لـه الشتائم أضعاف ، تطرده هي وأبواها ، يلجأ إلى غرفتـك ، تجالسـه وتشرب معـه الشاي الصعيدي الثقيل ، يحكـي لك عـن أسـرة خلفهـا فـي

الصعيد وبلدة جميلة كان يلقي فيها كل إعزاز وتقدير حتى سافر وارتمى في أحضانها .

يصرح لك بأنه لا بد عائد يوماً . . . .

ينعتها بالفاجرة . . . .

- كانت متزوجة زلمة أردنياً قبل أن تقابلني .

يحكي وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع . . . .

- كنت أعمل عنده باليومية ، حليت في عينيها وعششت في دماغي ، قلت لها لازم تطلبي الطلاق ، كان متزوجاً من أخرى ومخلف منها عيالاً ، ما صدق طلبت منه الطلاق بلا أي مصاري

- هل احببتها يا نفادي ؟ .

يمعن في الصمت ، يحدق طويلاً في فراغ الغرفة ، يطغى صوت وابور الجاز بضجيجه الرتيب تحت براد الماء المغلي، يستأنف :

- وفرت لي المسكن والهدمة النظيفة وبتنام معاي في الفراش ، هو الواحد عاوز إيه أكتر من كده ؟.

وددت لو تسأله " لماذا تتشاجران وتطردك كل ليلة وتسبك بأبشع السباب " .

تبتلع تساؤلاتك وتلزم الصمت ، تقتنع بما يجود به من حكايات ، يلم بأجفانه التعب ، ينام ، تربأ بنفسك أن توقظه ولكن طرقاتها على الباب تفعل . . . . . نفادي . . . . . . نفادي ، تهم بمساندته حين يصحو ، يتماسك ، يذهب معها ، بدا رغم ضخامته طفلاً صغيراً يهرع إلى أحضان أمه بعد غضبتها عليه .

في إحدى الليالي تجد أشياءك مبعثرة ليست بترتيبها، تتساءل عمن يدخل غرفتك ، تستشعر الخوف وعدم الأمان، تتساءل هل يفعلها نفادي ؟ .

يعرف أنك طالب جامعي ، تلقاك بنفسه حين نزلت من الباص

القادم من العقبة ، كان الوقت ليلاً ، منحته خمسة دينارات كاملة ليمنحك الغرفة ، شهامته معك لم تكن بلا مقابل!!

رغم ذلك تشعر بالحب والوفاء نحوه .

" الجبل الأخضر " الضاحية التي نزلتها ، تنتشر في أرجائها الفيلات والقصور الفاخرة والحدائق الغناء ، بعض الأبنية شائهة تفتقر للجمال ، علا بها الأهالي بلا تنظيم فبدت نشازاً وسط الجمال والرقي .

في الليل ترقب مدينة عمان ، تتلألأ بالأضواء ، تبدو غامضة ، تشعر بالعجز الشديد عن سبر أغوارها والولوج إلى دروبها ، تراودك جميلة امرأة نفادي في أحلام اليقظة ، ترتمي في أحضانك وتقول :

- هيت لك .

لا تعرض عنها ، تهم بها ، يتفوه البقال عنها حكايات مشينة ، يذكر أنها تخون نفادي وهو لا يهتم ، يسبه بأنه "ديـوث" ،

رمى نفسه عليها حتى تأويه فقط ! ؟ .

حجرتك مفتوحة على الدوام يمر عليها طريق الضاحية الرئيسي ، تطل عليك في الليل سماء حالكة ، تنطلق ألحان عبد الوهاب التي تحبها عن النهر الخالد ، تسترق السمع وأنت مستلق لأقدام تمشي على الدرب دون أن تعرف أصحابها ، في الليل المتأخر تسمع نباح كلاب يأتي من بعيد ، تتساءل عن الذي تراه ويثيرها بشدة ؟ ، لم تمض عليك سوى بضعة أيام ، يوليو بحره الثقيل يجثم على أنفاسك ، يلقي عليك نفادي السلام كل ليلة ويذهب إلى أحضان امرأته . . . .

تتمنى أن تنام وباب غرفتك مفتوح ، حكاية عن ذبح أحد المصريين وهو نائم تجعلك تحجم ، تغلق الباب ولازالت ألحان عبد الوهاب معك تتردد .

(٤)

الباص ......

تستقله ذات مساء ، تخرج لك تذكرتك من ماكينـة بجـوار السائق بعد أن تضع بها النقود ، في أحد المقاعد الوثيرة تجلس وأنت تقارن بين الباص القاهري والباص في العاصمة الأردنية ، تخترق الحافلة شوارع كثـيرة صاعدة وهابطـة ، يرتجف قلبك بعنف مع كل نـزول شديد لأحد المنحنيات ، تكتشف أنك تعاني من خوف الأماكن العالية ، وسط العاصمة تتجول وحيداً رغـم عشرات المصريين من حولك، يفترش العديد منهم الرصيـف حـول جامع الحسين ، المقـام لـن يحميهم من بطش الجنود الأردنيين ، تهبط عليهم فـي الليل

تفعل بهم الأفاعيل ، أغلبهم نزل العاصمة حديثاً منذ سويعات قليلة لا يعرف ما ينتظره .

الملابس أكوام ، لا سعر لها ، أغلب الدول العربية فتحت أبواب الاستيراد لكل السلع ، تركت الحرية كاملة لآليات السوق ولعوامل العرض والطلب ! ، في مصر ، يحاكمون من يشتري بعض احتياجاته بتهمة التهريب !! .

تنتقي سترة خضراء ، يرتدي الكثيرون من العمال مثلها ، تسعى ليكتسب مظهرك خشونة طالبي العمل في الميدان ، تساوم البائع ، تنقده دينارين، يضمهما في راحة يده راضياً تذهب إلى سينما الحمراء ، تلمح الصور العارية هنا وهناك ، حكوا لك أنها تعرض الجنس الصريح ، تقطع تذكرة ، تتشبث يدك بالسترة الخضراء الجديدة وأنت تجتاز البوابة ، غداً سوف ترتديها وأنت ذاهب إلى الميدان لتحارب من أجل لقمة العيش ، تقارن وسط الصور العارية بين حمراء

الأندلس بتاريخها العريض وبين الحمراء في عمان ، ترسخ سخرية مريرة في أعماقك .

حينا تنتهي تعود إلى الضاحية ، تجري بك عجلات الباص السريعة ، تترادف عليك صور البيوت والشوارع في ظلمة الليل تشعرك بالرجفة ، تنظر حولك ، الحافلة خاوية ، تزداد البرودة التي تسري في أوصالك .

ماذا تفعل على كل هذا البعد ؟ . . . .

ماذا لو لاقيت حتفك ؟ . . . . . .

منذ قرابة العام كنت تتلهف على الموت ! . . . . .

الآن !!! تقبل عليها بكل وجدانك ، تلك الحياة التي تتنفسها في كل شهيق وزفير .

من تراه يكترث ها هنا لو واجهتك المنية ؟ . . . .

من يعرفك ؟ . . . .

يأتيك صوتها من الأعماق البعيدة ، أمك الحنون التي فارقتها

منذ حوالي الشهرين وقلبك يرتجف .

عند باب الغرفة تجـده :

- بنت الكلب عاوزاني أبقى مرة ، تصور . . . .

تشـتري هدوم وعاوزاني أدفـع كل المصـاري إللي معاي فيها .

تقدم له بقايا ما عندك مـن طعام وتمنحه كـوب الشاي الذي تعود عليه ، يبادرك بعد أن يفرغ :

- ألاقي معك دينارين ؟

تمنحه الدينارات التي طلبها ، ينصرف راضياً وهو يقول :

- تصبح على خير .

يلوح لك السادات وهـو رافع عصا المارشالية المذهبة مثل هتلر ، يرتدي بزته العسكرية الألمانية الطراز ، يركب العربة المكشوفة ، يزج بالآلاف في السجون ومن بينهم الشاب مسعد الذي تشتاق إليه ، حتى هذه اللحظة لا يزال يلازمك ويدفع

بساعدك وأنتم تقذفون بالحجارة في وجه العسكر . . ..
ترى في منامك من يحاول كسر بابك والدخول إليك .
تصحو فزعاً . تتلمس بعينيك الواقع المحسوس للغرفة .
تستمع إلى وجيب قلبك . تستعيد هدوءك . يتسرب إلى
أذنك صوت الكلاب تنبح على البعد . تتساءل عما رأته وأثار
حفيظتها في هذا الوقت من الليل .
تتمنى أن تدخل سريعاً في مملكة النعاس . . . .
تحاول أن تبعد عن ذهنك أية علاقة لنباح الكلاب بأحلامك
وكوابيسك المزعجة . . . .
حريصاً وجلاً تجتاز أعتاب المملكة بعيداً عن النباح .

(٥)

كل صباح ......

تشق طريق الضاحية، تبدو المدينة من فوق قمتها مرتفعات مترامية من العمران ، تستنشق هواء نقياً منعشاً ، ينساب في عروقك حتى النخاع ، في إحدى اليوميات الشاقة تحمل عبوات الأسمنت والرمل طوال ساعات النهار وحتى المغيب ، يأتيك المغيب بالراحة دائماً ، تستلقي في ليله بغرفتك تسبح مع الأنغام والموسيقى ، تراودك الكتيبات التي أحضرتها في قاع الحقيبة ..... تناديك ...... لا تفكر أبداً بالغد ، ربما إحدى اليوميات هنا أو إحداها هناك ، لا تجري نحو طالبي العمال مثل الآخرين ، سباقهم بغيض ، تتعفف

نفسك عن الاشتراك فيه ، تملك القدرة على المنافسة ولكنك لا تملك الرغبة ! .

. . . . . . يا لها الرغبة . . . . عذبتك شهور طويلة .

جعلتك تعلن الحرب على كل مبادئك .

تكتشف مع الوقت أنها ضعفاً لا لعلاج له ، جزء من نسيج كل البشر .

تقف بوجهها الفاتن في شرفة أحد القصور التي تمر أمامها ، في حوالي الخامسة عشرة، يستدير وجهها ببهاء البدر ، ذات عصاري تقتحم زوجة نفادي غرفتك ، تدفع بصدرها نحوك ، تمد يدها بورقة نقدية وهي تقول :

- ألاقي معك فكه لهادي الورقة .

تتلعثم وأنت ترد باحثاً في جيوبك :

- للأسف لا .

تهم بالانصراف وبعيونها خيبة أمل ، تبادر بسرعة :

- أفكها لك من أبو كامل .

تستسلم موافقة بارتياح ، تمد يدها بعشرة دينارات أردنية على وجهها صورة الملك حسين بالعقال ، تذهب إلى البقال وأنت تتساءل . ما السر في عدم ذهابها إليه ؟ .

وما سبب اقتحامها الغرفة بمثل هذه الجرأة رغم وحدتك فيها ؟ يبتعد نفادي عن خيالك ، يتضاءل ويصير قزماً رغم عضلاته المفتولة ، شهوتك فيها تضغط على أعصابك ، تسخر من الحواجز والمثل التي كنت تحبس رغباتك فيها .

كم كان الصراع رهيباً في عملية الصعود نحو السماء !!

لم تصل . . . . . .

لا تزال تعبر بفاتنات القصور في كل زوال والليل يهم بالحلول والنهار يودع بعد عناء ، حصون قلبك الضعيف تدكها فتنتهي، تخلب لبك عيونهن الجريئة المستطلعة ووجوههن الغارقة في حمرة خجل المراهقة . . . .

في أعماقك تسترجع معاناة فترة المراهقة ، تتنهد مرتاحاً إنك ودعتها ورميتها وراء ظهرك منذ عبرت حاجز العشرين .

يبقى وجهاً واحداً وسط كل الوجوه ، يتكرر وقوفه في انتظار أوبتك صاعداً الضاحية . . . . . .

تمضي على الطريق بأكتافك العريضة وقامتك الطويلة ممتلئاً بالثقة والشباب ، في جبينك يطل واحد وعشرون عاماً عشتهم ، تبحث عن وجه جيهان وسط كل تلك الوجوه ، تلاشى وتبدد منذ زمن . . . . بعد حادثة المنصة نظرت بقرف إلى كل ما حولك ! !

نبذت كل الأسر والجماعات في محيط الجامعة ، في داخلك فكرة واحدة فقط أخذت تلح على كل كيانك ، تحلم بها في الليل وتراودك في أثناء النهار وأنت تتوغل في شوارع المدينة ، وأنت تجتاز كل الغيلان الذين يمتلئ بهم الشارع ، وأنت ترقب حركة البيع والشراء في كل ناصية وفي كل ركن

تلك الفكرة هي السفر والترحال . . . . . .

الفتاة ذات الخمسة عشر ربيعاً تبادلك نظرات ذات معنى ،

وددت لو تقول لها ألا تفعل فلا فائدة !!!

لن تعرفك أبداً . . . . . .

أو تعرف عبود الزمر المتمرد . . . . . .

أو خالد الاسلامبولي وبقية زملائه في حادثة المنصة . . . . . .

أو السادات . . . . . . ربما سمعت عنه فقط .

من يدري بماذا يفكر هؤلاء الآن ، فتيات الخامسة عشرة؟ .

خلصني يا الله لأن المياه قد دخلت إلى نفسي ،
غرقت في حمأة عميقة وليس مقر . دخلت إلى
أعماق المياه والسيل غمرني . تعبت من صراخي .
يبس حلقي . كلت عيناي .

"سفر المزامير"

غوايـــــة

(١)

أغسطس ......

يشلرف على الرحيل ، أيامك تمضي على وتيرة واحدة ، تجلس في أحد المطاعم عندما يشتد بك الجوع لتتناول وجبة رخيصة ، تجلس القرفصاء في الميدان يعلو الغبار وجهك ، تحدق في وجوه المارة والعربات بنظرات خالية من التعبير ، في المساء تمشي صاعداً الطريق الذي هبطت منه في الصباح المبكر والليل يلف الضاحية، تلمح الأضواء في شرفات البيوت وخيالاتاً لعذارى تنظر نحوك باستطلاع ، تشخص بعينيك الغائمتين نحو الغرفة الخاوية التي تنتظرك ! ذات يوم تتمزق تلك الرتابة وتنقطع حبالها ، يدفعك نفادي

لتعمل بأحد مخازن الأسمنت ، شكائر بالمئات، تصعد السقالات الخشبية خفيفاً وتنزل منها بطيئاً محملاً ، تعدو السيقان المدربة من حولك ، تجاهد حتى تلحق بدورك بينها، يغرق كل جسمك في العرق والغبار ، يتسلخ جلد أصابعك ، يختفي السائل الدموي اللزج تحت التراب الإسمنتي ، لا وقت للتداوي ، لا مجال للشكوى ، تضيع ملامح الوجه الآدمي ....

حين تدس النقود في جيبك أخر النهار تشعر بالزهو ، مضى العذاب ومضت معه كل الآلام وبقيت الدينارات في جيبك تمنحك الأمان وتشعرك بالرجولة ...... ترقد فوق الفراش منهكاً غير قادر على الاغتسال ، يأتيك نفادي للاطمئنان :

- إيش سويت ؟
- كما ترى .
- يجب أن تغتسل ، سأجعل مرتي تسخن لك بعض

الماء .

- لا داعي .

في داخلك تفهم ما وراء الحنان ، دينار أو اثنان حلاوة الشغلة ، شهامته معك دائماً ليست بلا ثمن !

يبيعها مثلما باع رجولته لهذه المرأة ؟؟

يأتيك صوتها الأنثوي :

- أتفضل يا سي خالد ، حمام العافية .

تشعر بنظراتها تخترقك ، تغلق الباب من ورائك ، ينساب عرقك المتجمد ، تغسل كل التعب ، تخرج زاهياً يتورد الشباب في وجهك وتنطق عينيك المتعبة براحة الاغتسال ، يلمع الأمل في روحك ، صرت رجلاً !!

تجدها هناك تنتظرك بالغرفة وهي تضع ذراعيها في خصرها:

- ماذا قال لك نفادي ؟ .

- لا شئ .

- أحب أن أعرف ، أصله بيلبخ ويبرطم بحاجات كتير محصلتش ، يعود كل ليلة متأخراً وليس معه أي مصاري ، يضيعها كلها .

تتأمل جسدها الممتلئ ، تراودك العينان الخضراوان في رؤية ضبابية غير واضحة ، يترجرج فخذاها السمينان من الثوب البيتي غير المحكم ، تنادي الأم القلقة على العذراء ذات العينين الخضراوان ، يأتيك صوتها حتى وأنت في بلادك البعيدة ، تتخيل منظر الفخذان عاريتان ، شفتاها المنفرجتان تصرخان برجولتك ، تتساءل كيف يتركها نفادي كل ليلة وحيدة ؟

- حتعملي إيه ، ربنا يصبرك .
- أنا عارفة كانت داهية إيه اللي جابته ، كان يوم أسود يوم ما عرفته ، يا ريتني قابلت شاب زيك ، طيب ومتعلم .

عيونها المكتحلة بسواد غامق ثقيل تقتحمك ، تتسلل إلى داخلك ذات العينان الخضراوان ، تصعد السطوح ذات مرة ، تلثم بنهم جسمها اللدن الريان .

لم ترجع إليك أبداً منذ سافرت المنصورة .

قبل أن تخرج تمسك بملابسك المتكومة في جانب الغرفة :

- حاغسلها لك .

تجفل ، تندفع نحوها بخجل ، تمسك يدها المتشبثة بالملابس قائلاً :

- لا أرجوك .

تلامس كتفها في اندفاعك السريع ، تستدير هي بالملابس مبعدة إياها عن ملمس يدك المتلهفة ، تعطيك كل ظهرها ، تحاول الإمساك بها، يصير الجسد في الجسد ، تشعر بملمس الجسم الساخن ، تمتد

ذراعها تغلق باب الغرفة وتواجهك بفمها الغارق في أحمر

الشفاه ، تهم لتفعل ، تبزغ العينان الخضراوان من قلب الضباب ، يصعد وجهها الغارق من قلب النسيان ، تتصلب كل عروقك ويتجمد سريان دمائك ، تقول لها في أسف :

- أرجوك الأفضل أن تصعدي بسرعة ، نفادي ينتظرك .

- لا تحمل هماً له ، هوة الساعة برة ، هسة خارج ، خد مني مصاري وغار .

تسدد كل السبل في وجهك ولكنك عازف ، نادم ، يعتصرك الألم منذ زمن . . . .

ذهبت أحلام إلى الجامعة ولم تعد أبداً ، كنت تنتظرها دوماً في لهفة ، حين تأتي الأجازات ، تختبئ منك في داخل البيت ولا تراه أبداً ذلك الوجه الذي كان يتلهف لرؤيتك ، تحكم هي إغلاق الباب ، تستلقي فوق المرتبة وهي تشير بذراعيها إليك ، تجذبك نحو فخذيها منحية الثوب عنهما،

يصرخ بك خالد الإسلامبولي " أيها المزيف ، أين ما كنت تدعي من أخلاق ومبادئ ؟ هل سافرت بغية الجنس ؟"

يصرخ بك بسيل من الشتائم ، يوجه رشاشه نحوك ، يرديك قتيلاً قبل ان تفعل ، ترتمي في جوارها دون أن تهم ، تقول لك في سخرية :

- سيدنا يوسف . . . . ؟؟

تمسك رأسك بيدك وتقول لها في رقة لم تفهمها :

- أسف لن أستطيع . . . .

لا يضيرك ما تظن أو ما تعتقد ، تخرج من الغرفة مخلفة وراءها آثار عراك وبقايا معاشرة لم تتم وزهو يملؤك .

(٢)

يداهمك ......

الإحساس بالوقت في أغسطس ، أيام كثيرة مرت ولم تحقق شيئاً ، مجرد حفنة من الدينارات هي كل ما ملكت وتجربة مريرة مع امرأة تنظر إليك باحتقار الآن .....

حين تعود من عملك تجدها واقفة تنظر نحوك بقرف ، أحياناً كثيرة تدير رأسها إلى الجانب الآخر ، شجارها مع نفادي تزايد عن ذي قبل ،حين تجده عندك تأتي وتتعمد الإساءة إليه في وجودك ، تود لو ضربها وسلخ لحمها أمامك ، تود لو كنت عاشرتها وأسكت كل تلك الإهانات التي تضخمت ولكن ....

تظل تتساءل دوماً ، هل فعلت الصواب ؟ .

هل بهذا يقترب طريقك من السماء التي حاربت نفسك وروحك للوصول إليها ؟ .

تذهب في إحدى المرات إلى جبل عمان ، ضاحية راقية في وسط المدينة ، تدخل إلى حديقة غناء في القلب منها يقع أحد القصور الفارهة ، تجد من حول حمام السباحة تماثيل عارية تنبثق منها المياه العذبة النقية ، تتساءل في دهشة عن حكاية هذه التماثيل وقصة هذا المكان ، يخبرك الرجل الذي اصطحبك أنهم يأتون في الليل يشربون ويسكرون ويفعلون الفحشاء هناك بين الشجيرات وفوق الحشائش الخضراء ، ترقبها التماثيل الصامتة النابضة بالمياه ، لا يخشون أو يأبهون لشيء . . .. !!!

تسخر من كل الحرمان الذي تفرضه على نفسك بينما تنتشر من حولك كل المحرمات ، تحرقك كثيراً نار الشهوة حين

تعود إلى الغرفة وحيداً لا يأبه بك مخلوق . . . . . .

تخرج كتب الفلسفة والأدب التي جئت بها ، تجتاز عتبة العزوف الطويلة التي فرضتها على روحك منذ قرابة العام ، تسهر عليها الليالي ، تمتنع أياماً عديدة عن الذهاب للميدان، تستمتع بالقراءة والموسيقى ورؤياها حين تخرج من فناء الدار تتهادى أمام غرفتك بفخذيها الريانين ، لا تستطيع أن تمنع نفسك من اشتهائها ، تلمح هي نظراتك ، تشعر ببصيص أمل في رجولتك فتتعقبك .

في مساء أحد الأيام تفاجئك بالغرفة ، تغلق الباب وراءها ، تقول لها ساخراً :

- تاني مابتحرميش .

ترمي بنفسها جوارك في الفراش ، تشعر به منتصباً ، تتأكد من كامل رجولتك .

- ماذا بك ؟ دا أجدعها راجل يتمنى تراب رجلي.

- أرجوك ، لا تحاولي .

تنهض عنها مغادراً ، تقف على باب الغرفة ، تـهم أن تفتـح الباب ، تأتيك طرقات تعرفها جيداً ، يخترقك الصوت واضحاً:

- افتح يا خالد .

تكتم أنفاسها ، تهمس في أذنيها :

- ماذا أفعل الآن ؟

- اصرفه .

- لا أستطيع ، له مدة طويلة لم يأتني .

تنظر إلى برميل المياه الذي بالغرفة ، تخطر لك الفكرة :

- تغطسي روحك فيه .

برعب تنتفض :

- أغرق .

- لا ، نصفه فارغ .

تحشرها برفق ، تضع من فوقها إناءً فارغاً وبضعة ملابس ، تفتح

يقف أمامك أسمر الوجـه ، قـوي العضلات ، طيب الملامح ، تسحبه من يده إلى الداخل مثلما سحبك من وسط عمان إلى الغرفة ، تمسك اليد في حماس واندفـاع ، تـود أن تقـول له صراحةً . . . . . لقد انتصرت ، حفظت لـك شرفك ورددت لك الجميل !! .

تـود أن تخـبره أن طريقـك نحـو السـماء كـان قاسـياً ومليئـاً بالحرمان وأنه قد اقترب من نهايته فقد انتصرت على جميلة ، امرأته ، يتربع على المرتبة فوق الأرض في مواجهة البرميل :

– وينك يا نفادي ؟

- أنا اللي ويني ، وينك أنت ؟ ما عـدت بتشـتغل وكل ما جيب لك شغلانة ترفض .

- كله إلا شغلانة الإسمنت ، أي حاجة تانية ماشي .

- مصاريها حلوة .

- ولو .

يسود الصمت بينكما ، تمر الدقائق دهوراً كاملة ، تتخيل الجسد الغارق هناك في قلب البرميل والأنفاس الرتيبة في هدوء تتردد في جنباته ، تمسك برأسك متعللاً بصداع عنيف يجتاحك ، تستأذنه أنك سوف تستريح ، ينظرك بشك . . . .
هل تتحقق كوابيسك ويقع شر كبير ؟
ينهض متباطئاً ، حين يخرج ، تهرع إلى الباب وتحكم إغلاقه متنفساً الصعداء ، تخرج غارقة تماماً في المياه :

- غار في ستين داهية .
- نعم .

تعقب هازئة :

- ما تخافش قوي كده ، ده زي الفرخة لا يقدر على شيء .

ترصد لها الطريق المظلم ، يبتلعها فناء الدار الصامت بينما

ردفاها المهتزان وملمس جسدها الساخن يتعلقان بكل خيالك ، هل يراقبها نفادي ؟ هل يختبئ في الجرف المظلم المقابل للغرفة يرقب بابك حين ينفتح وتخرج ؟ من يدري أنه الآن لا يمسك بحلقومها ويخنقها ؟ تتأمل جوف الدار المعتم ، تتأكد أن لا شيء بعد أن تعتاد عيناك الظلام ، تنزوي في الداخل قلقاً ، تسترق السمع إلى كل الخطوات في الخارج ، يأتيك نباح الكلاب ، تسري في أوصالك قشعريرة وتشعر بشر كبير .

هل يقتلك نفادي ؟ أم يقتلها ؟ .

تأتيك أمك في الحلم ، تدخل غرفتك ، تخاطبك بكلام غير مفهوم ، طلقات رشاش خالد الإسلامبولي تتساقط كالمطر على نافذتك ، يتسلل إلى سكنك أحدهم يريد اقتحامه ، تصحو مستعيذاً ، تشرب الماء بلا فائدة ، تظل مجفل العين قلقاً حتى الساعات الأولى من الصباح .

ينتشر الضياء ويتسربل عبر شقوق النافذة غير المحكمة . تفتح باب الغرفة على النهار يسطع فوق الضاحية . تستنشق عبير الصباح النقي الذي تملأ به صدرك . تشعر بغربة واضحة عن كل ما حولك . عن البيوت والقصور وعن بيت نفادي .

(٣)

لم تكن ....

موقناً أنها ستمتنع عن المجيء والمحاولة .

حملت الحقيبة الهاند باج فوق كتفك وتلفعت بليل ثقيل بارد ، ودعت الجبل الأخضر بقصوره وفتياته ، تلمست جدار بيت نفادي الإسمنتي بيدك ، كنت تعرف أنك لن تحج إليه مرة أخرى في أية سفرة .

راودك إصرارها ، أدركت أن الأنثى الجريحة لن تهدأ حتى تنال ما تبغي وما تهفو أنت إليه ، رحلت في الليلة الأخيرة من أغسطس ، تتنازعك عواصف الخريف التي بدأت مبكرة في داخلك ، بالأمس البعيد منذ قرابة العام كادت تلك

العواصف الهوجاء أن تودي بحياتك فتبتلع بضعة أقراص الفاليوم ، اليوم تكاد أن تقع في الهاوية وتتردى في الظلمات، جرفتها أحلام إلى ظلماتك وحرقتها رغم أنك لم تنل عذريتها ، حين قابلتك مصادفة بعدها لم تعثر على ذلك الوجه المتلهف ، المشرق ، أو تلك العينين الهائمتين فيك ، تشعر بالذنب يحاصرك وتحتقر كل ما دنست من مشاعر!!

ما كنت ستتزوجها أبداً مهما حدث حتى لو دخلت المحظور الذي وضعته لك . . . . ..

تمر عليها تلك الكلاب التي كانت تعوي في جوف الليل ، تنبح في وجهك مهددة ، الآن تودع نذير الشؤم الذي كان يقشعر منه بدنك وتنفر منه روحك ، ترحل عن الخطر المحدق الذي كان يجثم فوق أنفاسك ، تترك نفادي هناك في أعلى الضاحية مع جميلة المشتعلة . . . . . . !!

ربما تحرقه بنارها أو ربما يقضي عليها ويجدونها مقتولة في

جرف الجبل ، سوف يختفي وربما يعود إلى موطنه الذي حكى لك عنه أو يذهب ليرتمي في أية أحضان أخرى .

تقترب خطواتك من مهبط الضاحية المفضي إلى الطريق العمومي ، تقف ، يعتصرك حنين جارف إلى تلك الأوقات التي عشتها هناك وإلى كل من عرفت ، يهيأ لك أنها واقفة هناك ، ترقبك وأنت ترحل بعينيها السوداوين الممتلئتين بالكحل وشعرها الفاحم المسترسل بلا نظام ، تقف في الشرفة ، ترقبك منها أوان عودتك أخر النهار ، تتأمل صدرك العريض النابض بالشباب ، يختنق صدرك وتغيم عيناك بدموع تريد أن تنهمر ، تجمدها برودة زاحفة في الليل المتأخر ، تمضي ذاهباً إلى القلب من المدينة حيث موقف الباصات وسيارات السفر المرسيدس التي تشتهر بها عمان ، تسأل عن محطة العراق يشيرون إليك في الاتجاه الذي تذهب .

تندفع بلا تردد .

الفهرست

للمؤلف :

١- (أجواء خريفية) مجموعة قصص ١٩٩٦

٢-(فتاة القطـــار) مجموعة قصص ١٩٩٨

٣-(برد محتـــمل) مجموعة قصص ١٩٩٩

تحت الطبع :

- (وجه شاحب للقمر) روايـــــة - الهيئة العامة لقصـور الثقافـــة .

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠١/٥٦٨٦

بورت برس للطباعة
ممدوح رجب السيد
الادارة شارع النهضة والشهيد مختار
ت : ٢٢٢١٢٨ محمول : ٠١٠٥١٠٩٣١٥
بورسعيد